



٢٢

مكتبي

الملك لوك

وقصص أخرى

بقلم: د. مرعي مذكور

رسوم: فنان بدران

الطبعة الثانية



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ Email: maaref@idsc.net.eg

إعداد ماكيت : أمانى والى

تَحْتِ ظِلِّ النَخْلَةِ الْعَالِيَةِ؛ الَّتِي تَقَعُ عَلَى نَاصِيَةِ حَقْلِهِ؛ ضَمَّ الْفَلَّاحُ
النَّشِيطُ رِجْلَيْهِ عَلَى بَطْنِ حِمَارَتِهِ، وَأَخْرَجَ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ صَوْتًا يَشْبَهُ الصَّفِيرَ،
وَهُوَ يُوقِفُ الْحِمَارَةَ وَسَمَّى بِاسْمِ اللَّهِ وَهُوَ يَقْفُزُ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِ حِمَارَتِهِ إِلَى الْأَرْضِ؛
وَهُمْ إِلَى الْعَمَلِ فِي خَفَةِ وَحِمَاسٍ شَدِيدَيْنِ.

خَلَعَ جِلْبَابَهُ الْأَزْرَقَ الطَّوِيلَ، وَعَلَّقَهُ عَلَى جَرِيدَةٍ مُتَدَلِّيَةٍ مِنْ نَخْلَةٍ صَغِيرَةٍ مُجَاوِرَةٍ
لِلنَخْلَةِ الْعَالِيَةِ ذَاتِ الظِّلِّ الْوَارِفِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى رَأْسِ حَقْلِهِ، وَأَخَذَ الْفَلَّاحُ
النَّشِيطُ نَفْسًا عَمِيقًا مَلَأَ رَتَّتِيهِ؛ وَحَمَدَ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَى تَمَامِ الصَّحَةِ
وَالْعَافِيَةِ، وَشَمَّرَ أَكْمَامَ «فَانَلْتَهُ» عَنْ سَاعِدَيْهِ، ثُمَّ سَحَبَ ثَوْرَهُ نَاحِيَةَ السَّاقِيَةِ،
وَوَضَعَ طَرْفَ الذَّرَاعِ الْخَشْبِيَّةِ الطَّوِيلَةِ - الْمُتَّصِلَةَ مِنْ طَرَفِهَا الْآخِرِ بِمَحْوَرِ السَّاقِيَةِ
- فَوْقَ رَقَبَةِ الثَّوْرِ، وَرَبَطَهَا بِحَبْلِ لَيْفٍ مَتِينٍ، وَبَعْدَ أَنْ أَحْكَمَ تَعْلِيْقَ الثَّوْرِ فِي
السَّاقِيَةِ، وَضَعَ غِمَامَةً سُودَاءَ فَوْقَ عَيْنَيْ الثَّوْرِ لِتَمْنَعَ عَنْهُ الرُّؤْيَةَ، ثُمَّ رَجَعَ الْفَلَّاحُ
النَّشِيطُ إِلَى الْوَرَاءِ قَلِيلًا وَأَفْسَحَ الطَّرِيقَ لِلثَّوْرِ الْمُرْبُوطِ مِنْ رَقَبَتِهِ فِي السَّاقِيَةِ.

ثُمَّ لَفَّ الثَّوْرُ حَوْلَ السَّاقِيَةِ فِي حَرَكَةٍ دَائِرِيَّةٍ، وَدَارَتِ السَّاقِيَةُ.

وَمَعَ دَوْرَانَ الثَّوْرِ وَحَرَكَةَ السَّاقِيَةِ؛ زَادَتْ حَرَكَةُ الْفَلَّاحِ النَّشِيطِ، وَبَصْرُهُ
يَبْرُوحُ وَيَجِيءُ مَعَ ارْتِفَاعِ قَوَادِيسِ السَّاقِيَةِ مِنَ الْبُئْرِ الْعَمِيقَةِ وَهِيَ مَحْمَلَةٌ بِالْمِيَاهِ؛
وَدَوْرَانُهَا فِي حَرَكَةٍ دَائِرِيَّةٍ إِلَى الْجِهَةِ الْأُخْرَى هَابِطَةً؛ لِتَصَبَّ هَذِهِ الْمِيَاهُ فِي
الْمَجْرَى الْمَوَاجِهُ لِبُئْرِ السَّاقِيَةِ.

وَتَرْتَفَعُ الْمِيَاهُ فِي الْمَجْرَى مُتَّجِهَةً فِي سُرْعَةٍ إِلَى دَاخِلِ الْحَقْلِ، وَيَرْفَعُ
الْفَلَّاحُ فِي كَفِيهِ حِفْنَةً مَاءٍ وَيَرْمِيهَا إِلَى أَعْلَى فَرْحًا، ثُمَّ يَنْشَغِلُ بِتَحْوِيلِ مَجْرَى
الْمِيَاهِ مِنْ حَوْضِ زَرْعٍ إِلَى حَوْضِ ثَالِثٍ، وَرَابِعٍ، وَخَامِسٍ.. الْفَلَّاحُ النَّشِيطُ فِي
غَايَةِ الْفَرَحِ وَالسَّرُورِ وَهُوَ يُشَاهِدُ الْمِيَاهَ تَتَدَفَّقُ فِي حَيَوِيَّةٍ وَتُرْوَى الْأَرْضَ الْعَطْشَى
كَاسِحَةٍ مَا يَبْصُرُهَا مِنْ أَوْرَاقِ زَرْعٍ مَقْطُوعَةٍ وَأَعْشَابٍ صَغِيرَةٍ نَاشِغَةٍ فِي الْمَجْرَى
أَمَامَهَا، وَالْأَرْضَ الْعَطْشَى الْمُتَشَقِّقَةَ مِنْ غِيَابِ الْمَاءِ تَفْرِحُ وَتَزْغَرُ بِالْمِيَاهِ الَّتِي
تَتَدَفَّقُ فَوْقَهَا مَحْدَثَةً أَصْوَاتًا كَأَنَّهَا أَعْوَادُ قَمْحٍ تَتَكَسَّرُ سَاعَةَ الْحَصَادِ:

- شى .. ش ..

والماءُ فى غايةِ الفرحِ وهو يجرى فى موجاتٍ متلاحقةٍ؛ موجةٌ تجرى وراءَ موجةٍ؛ جهةِ النخلةِ العالِيةِ التى تفرشُ ظلالها على ناصيةِ الحقلِ والأرضِ من تحتهِ - الماء - تزغردُ محدثةً أصواتَ فرحٍ وسرورٍ؛ مُرحبةً بالماءِ ومهللةً:

- ما الماء .. ما الماء ..

فى تلكِ الأثناءِ؛ وبَعِيداً عن الموجِ الذى يتهدى موجةً وراءَ موجةٍ؛ ابتعدتُ حَفنةُ ماءٍ عن التيارِ، وانزوتُ جانباً فى زاويةِ حوضِ زرعٍ قريبٍ منها، ومالتُ على بقيةِ الماءِ المتهاوى من حولها؛ وقالتُ فى غضبٍ:

- انظرُ أيها الماءُ الطاهرُ، هذهِ النخلةُ العجوزُ لا تعرفُ قيمتنا الحقيقيةَ، نعيئها نحن - الماءُ الطاهرُ الزلالُ - على الحياةِ فتشُمُّ أنفاسها مثلَ غيرها من خلقِ اللهِ.

وتثمرُ بلحاً تختالُ به وتتمايلُ عجباً، فيهتمُ آدمى بما تثمره ويجهزُهُ مع ما يجنيه من النخلِ الآخرِ ويصنِّفهُ أصنافاً مُصنَّفةً:

- رُطبٌ - سكرى - نبوتُ الغفير - نبوتُ سيف - أسوانى - قعقع - رشيدى - أبريمى.

وغيره وغيره من أصنافٍ ..

وينشئُ آدمى لهذهِ الأصنافِ مصانعَ لتعبئتها وتكيسها، وتغليفها فتصبحُ أكواماً كبيرةً تباعُ وتشتري، ومن ليفِ النخلِ يصنعُ الحبالِ، ومن جريدِ جُدوعه تسقفُ البيوتُ، وسيظلُّ النخلُ مصدرَ نفعٍ للقادمِ والرائحِ من الإنسانِ والحيوانِ والطيرِ ..

ورفعتُ حَفنةُ المياهِ قامتها مشيرةً إلى طراوةِ الظلِ أسفلَ النخلةِ؛ والغَيْظُ يأكلُ قلبها قائلةً:



حتى هذه الحماره؛ العرجاء؛ سعيدة في ظل النخلة العجوز، وها هي تهشُّ بذيلها الدبابيرَ والدُّبابَ عن جسدها، وعندما يغلبها النحلُ الهائجُ ويشبعها لدغاً؛ ترمى نفسها في مياهِ الترعَةِ مُستنجدةً بنا..

وتنهَّدتُ حَفْنَةُ المَاءِ؛ وهى تَأْخُذُ نَفْسًا طويلاً؛ وأكملتُ كلامها:

- وفى النهاية لا شُكْرَ ولا جَمِيلَ للماءِ أساسُ النعمةِ والحياةِ..

الماءُ المجاورُ لحَفْنَةِ المَاءِ الغاضبةِ سَمِعَ هذا الكلامَ فاستعادَ بالله من الشيطانِ الرجيمِ ومن الوسواسِ الخناسِ، لكن حَفْنَةُ المَاءِ قاطعتُ الماءَ المجاورَ لها فى الزاويةِ؛ قائلة:

أعرفُ أن الله سبحانه وتعالى خالقُ كلِّ شيءٍ؛ ولكنَّه قالَ أيضاً فى القرآنِ الكريمِ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (١)

كما قالَ سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ

فِيهِ تُسَيَّمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالرِّيْثُونَ وَالنَّخِيلَ

وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ (٢)

وقوله..

وهنا قاطعَ الماءِ المكونِ فى الزاويةِ حَفْنَةُ المَاءِ الغاضبةِ؛ قائلاً لها:

- الله سبحانه وتعالى يا بُنَيَّتِي مُجرى المَاءِ وخالقُ الحياةِ.. و.. لكن حَفْنَةُ المَاءِ

الغاضبةِ لم تستمعَ لهذا الصوتِ وتدفقتُ مسرعةً جهةَ النخلةِ العجوز، وتوقفتُ

- فى ظلِّها - والغضبُ يَهْزُ كيانها، ونظرتُ من أسفلِ النخلةِ إلى أعلاها،

وقالتُ لها فى تكبُّرٍ وفى صوتٍ متعجرفٍ:

(١) سورة الحج / الآية : ٥ .

(٢) سورة النحل / الآيتان : ١٠ ، ١١ .

– قَدِّمِي لَنَا فُرُوضَ الطَّاعَةِ وَالْوَلَاءِ أَيُّهَا النَّخْلَةُ الْعَجُوزُ؛ فَحَبَّاتُ الْمَاءِ قَادِمَةٌ تَرَوِي عَطَشَكَ، وَتَبْلُ عُرُوقَكَ، وَتُنْقِذُكَ مِنَ الْجَفَافِ وَالتَّيْبُسِ وَالْمَوْتِ الْمُحَقَّقِ.

الغَيْظُ جَرَى فِي جَسَدِ النَّخْلَةِ الْعَالِيَةِ، فَاهْتَزَّ جَرِيدُهَا، وَتَدَبَّبَ سَعْفُهَا وَإِقْفَا مِثْلَ الْإِبْرِ، وَوَشَّوَشَ الْجَرِيدُ بَعْضَهُ بَعْضًا، وَحَدَّثَ هَرَجٌ وَمَرَجٌ.. وَلَكِنْ بِحِكْمَتِهَا الْمَعْرُوفَةِ تَمَلَّكَتْ النَّخْلَةَ أَعْصَابُهَا، وَفِي صَوْتِ وَقُورٍ قَالَتْ لِحَفْنَةِ الْمِيَاهِ الْغَاضِبَةِ:

– الشُّكْرُ أَوْلَى لِخَالِقِ الْكُونِ؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ مُجْرَى الرِّيحِ وَالسَّحَابِ وَ..

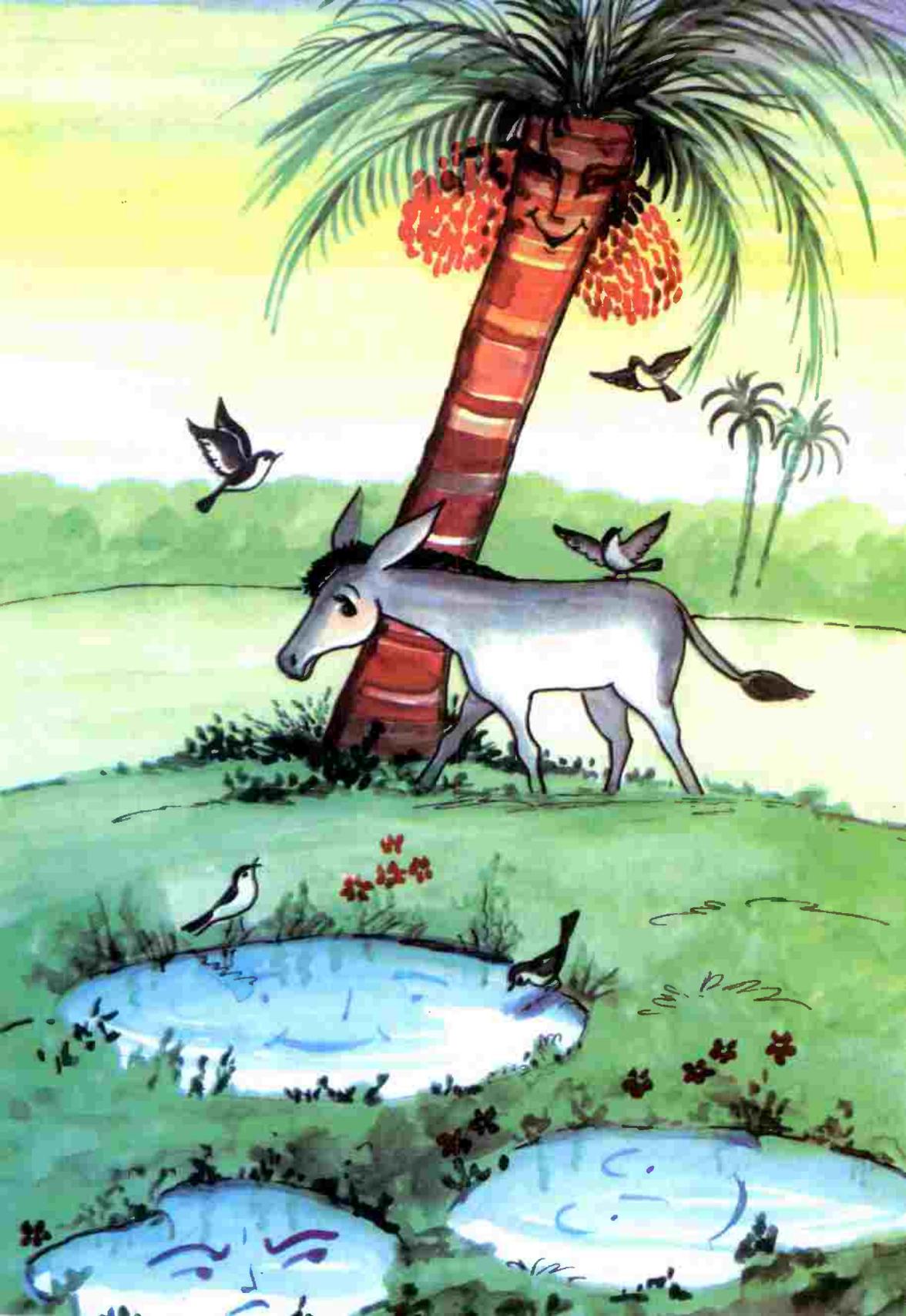
اشْتَدَّ غَيْظُ حَفْنَةِ الْمِيَاهِ الْغَاضِبَةِ، وَقَاطَعَتْ النَّخْلَةَ سَاخِرَةً:

– لَا تَنْظُرِي أَيُّهَا النَّخْلَةُ إِلَى هَذَا الْفَلَّاحِ الَّذِي أَطْلَقَ عَلَيْكَ اسْمَ «الْمَبْرُوكَةِ»، فَالْمَبْرُوكُ هُوَ الْمَاءُ، وَانظُرِي حَوْلَكَ أَيُّهَا النَّخْلَةُ الْعَجُوزُ، فَهَاهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي شَقَّقَهَا الْجَفَافُ تُزْغَرِدُ لَجْرِيَانِ الْمَاءِ فَوْقَهَا وَهَاهِيَ الْكَائِنَاتُ الْحَيَّةُ يَرْتَوِي عَطَشُهَا وَيَنْطَفِي لَهَيْبِهَا بِمُجَرَّدِ مُرُورِ الْمَاءِ بِهَا، وَالْإِنْسَانُ حَيَاتُهُ الْمَاءُ: يَشْرَبُ الْمَاءَ، وَيَعِيشُ بِالْمَاءِ وَمِنَ الْمَاءِ، وَيَرْكَبُ الْمَاءَ فِي الْمَرَاكِبِ وَالسَّفَنِ، وَالدُّنْيَا كُلُّهَا تَتَحَوَّلُ بِفِعْلِ الْمَاءِ إِلَى حَدَائِقَ غَنَاءٍ.

وَشَوْشَ جَرِيدُ النَّخْلِ بَعْضَهُ وَهُمْ يَذْكُرُ حَفْنَةَ الْمِيَاهِ الْغَاضِبَةِ أَنَّ النَّخْلَ – أَيْضًا – مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَ.. وَلَكِنْ قَاطَعَتْ حَفْنَةُ الْمِيَاهِ الْغَاضِبَةِ وَهِيَ تَوَاصَلَ الْكَلَامَ وَتَنْظُرُ إِلَى الْجَمِيعِ فِي ازْدِرَاءٍ، قَائِلَةً:

بَيْنَمَا كِتَابُ اللَّهِ الْكَرِيمُ أَيُّهَا النَّخْلَةُ الْعَجُوزُ، أَلَمْ تَقْرَأِي كَلَامَ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ الْآيَةُ ٣٠]

تَعَجِبْتُ النَّخْلَةَ مِنْ مَوْقِفِ حَفْنَةِ الْمِيَاهِ الْغَاضِبَةِ، وَرَدَّتْ عَلَيْهَا فِي هَدْوٍ:



- قرأتُ يا أُخَيَّتِي، وزادَكَ اللهُ من نعيمِهِ، فالتَّعُدُّ والتَّكاملُ أساسُ الحياةِ البشريةِ..

في تلكَ اللحظة؛ كانت المياهُ المتدفِّقةُ قد زادتُ في حوضِ الزرعِ الذي تَقَعُ فيه النخلةُ العالِيَةُ، وَغَطَّتْ النباتاتِ الصغِيرَةَ التي بدأتُ تظهِرُ من باطنِ الأرضِ، وما أنْ وَقَعَتْ عَيْنًا الفلاحِ النَشِيطِ على المياهِ التي زادتُ في حَوْضِ الزرعِ حتَّى رَمَى عَصَاهُ الطويلةَ التي يُلْهَبُ بها ظَهْرَ الثورِ - المعلقُ في الساقِيَةِ - من حينٍ لآخر، وأسْرَعَ الفلاحُ يُسَدُّ مَجْرَى المياهِ وتناولَ جردلاً وأخذَ يَنْزَحُ به المياهُ التي زادتُ في حوضِ الزرعِ، ويرمِيها على جانبِ الترعَةِ، وتُحدِثُ المياهُ - التي يرميها الفلاحُ - أصواتَ فرقعةٍ وهي تختلِطُ بالترابِ وتَقَعُ على الأرضِ الساخِنَةِ.

وزادتُ الحرارةُ التي تَلْسَعُ الأقدامَ، وبفعلِ الحرارةِ الشَّدِيدَةِ تَتَبَخَّرُ المياهُ التي يَنْزَحُها الفلاحُ ويرمِيها فوقَ جانبِ الترعَةِ، تَتَبَخَّرُ كأنها دخانٌ، وتتصاعَدُ أبخرتها في طبقاتِ الجوّ العُلْيَا.. حَفَنَةُ المياهِ الغاضِبَةُ التي اغتاطتُ من النخلةِ العالِيَةِ كان نصيبها وقوعها في جردلِ الفلاحِ النَشِيطِ ليرمِيها مع حَفَنَاتِ مياهِ أُخْرَى على جانبِ الترعَةِ، وتبخَّرتُ هي الأخرى مع المياهِ الزائدةِ عن الحدِّ، وتصاعَدت - بَخْرًا - في طبقاتِ الجوّ العُلْيَا.

سَمِعَتْ؛ وهي تَتَبَخَّرُ؛ الكائناتِ تُسَبِّحُ بحمْدِ اللهِ: «المُلكُ لك» «المُلكُ لك» «المُلكُ لك، ما أعدلك».. وفي أثناءِ انشغالها بالإنصاتِ إلى مخلوقاتِ اللهِ وهي تُسَبِّحُ بحمده، لم تَنْتَبِهْ إلى نفسها وهي تَتَجَمِّدُ مرَّةً أُخْرَى في طبقاتِ الجوّ العُلْيَا ثم تَسْقُطُ في شكلِ حباتِ نَدَى فوقَ سَعْفِ النخلةِ العالِيَةِ الطويلةِ الباسِقَةِ والمبتسمةِ على الدوامِ، والتي يستجيرُ المارةُ بظلها من الحرِّ اللافحِ، والنخلةُ العالِيَةُ سعيدةٌ غايةَ السعادةِ، وهي تَمُدُّ جذورهاَ لأعماقِ الأرضِ وتجاهدُ لتسحبَ الغذاءَ؛ وتوزعهُ دونَ كلِّ أو مللٍ على جريدها، وسباطها، وسعفها..



قطرات الندى التي تجمعت وُقفت فوق بضع سعفاتٍ من جريد النخلة العالية، رأت هذه القطرات النخلة سعيدة غاية السعادة بعطائها الوفير وفرحها، ومرحها، وقناعتها.. وقالت قطرة المياه لنفسها بعد أن انزاح غضبها: - أخطأتُ والله في حقِّ أختي النخلة، فالكلُّ يعملُ ويعطى والواحدُ منا لا يمكنُ أن يعيشَ بنفسه ولا لنفسه فقط.

وفي الوقت الذي كانت قطرات الندى المنكماشة فوق سعف إحدى جريد النخلة العالية تهمُّ بالاعتذار للنخلة؛ في ذلك الوقت هبت نسيمة ندية طوحت جريد النخلة العالية يميناً ويساراً..

هنا انزلت قطرات الندى من فوق السعف في سرعة غريبة إلى أسفل، وما أن استقرت على الحر اللافح فوق الجسر؛ حتى وجدت قطرات الندى نفسها تتبخّر - مرة أخرى - في الفضاء الفسيح، والكلُّ من حولها يسبح بحمد الله، ويعمل، ولسان حاله يكرّر:

المُلْكُ لك، المُلْكُ لك، ما أعدلك..

حصّة رسم

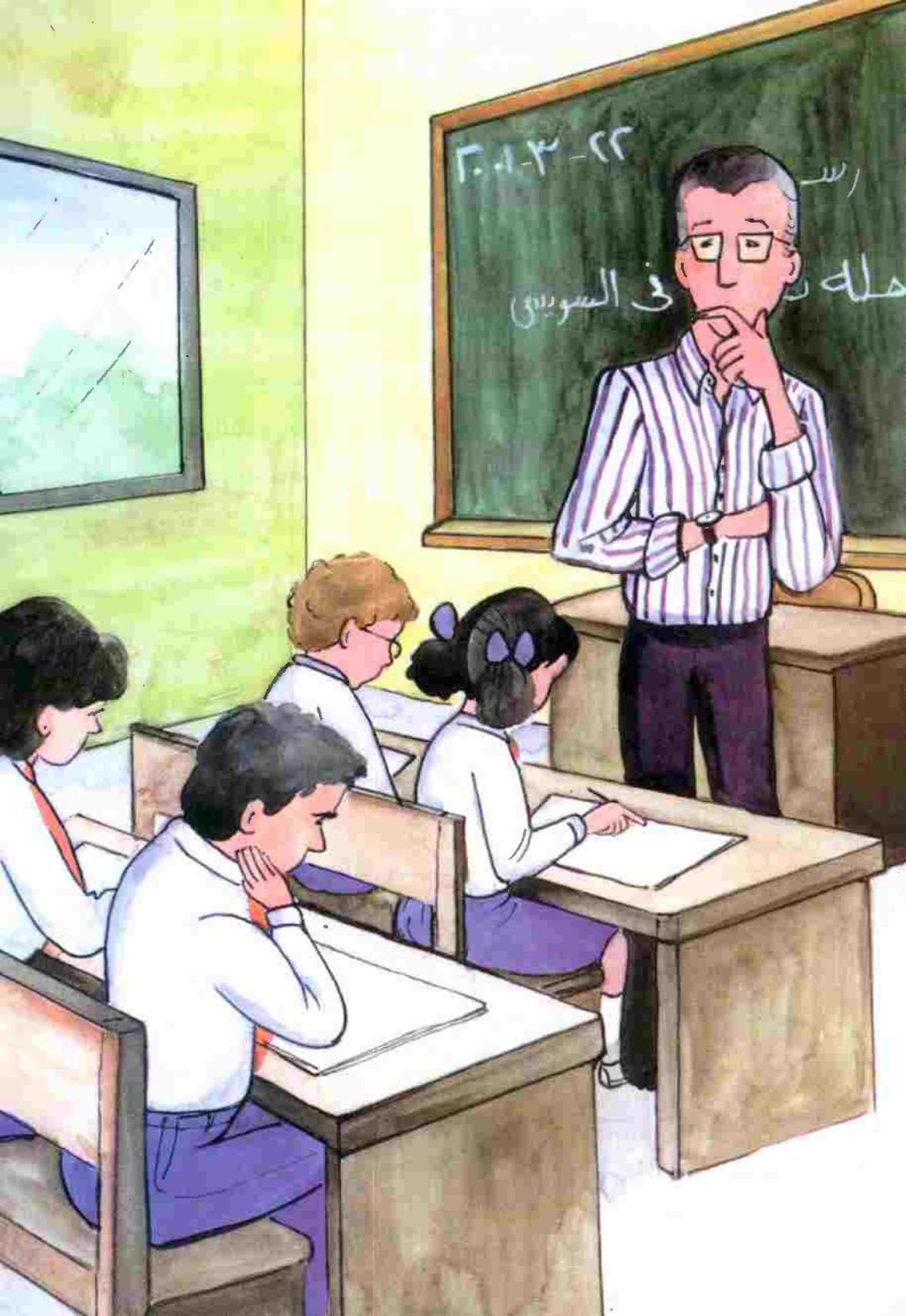
للمرة العاشرة منذ دخوله الفصل؛ يرفعُ مدرسُ الرسمِ يده - ويقربُها من وجهه - وينظرُ إلى ساعته، ثم ينظرُ إلى الولدِ النحيلِ مصطفى.. هذه المرة - العاشرة - تعجّبَ وسأل نفسه مُتحيّرًا:

نصفُ ساعةٍ طوبلةٍ عريضةٍ فاتت، والولدُ مصطفى لم يرفعِ يده مُشيرًا إلى انتهائه من رسمِ البحرِ، ولم يرفعِ إصبعه ويصيحُ مُنفعلًا كالعادة:

أستاذ.. أستاذ.. أنا يا أستاذ..!!

وأعادَ الأستاذُ النظرَ إلى مصطفى، الولدُ - ما شاء الله - شعلةُ نشاطٍ وحيويةٍ، رغمَ نحافةِ جسده التي تكادُ تصلُ إلى درجةِ الهزالِ.

غريبةٌ؛ أولُ مرةٍ لا يسبقُ الولدُ فيها زملاءه، وزيادةً على ذلك تأخرَ عن الانتهاءِ من رسمِ الدرسِ..!!.. العادةُ أنه بمجردَ مرورِ دقائقَ على بدايةِ الحصّة؛ تسمعُ طرقةً أصبعه و «أنا يا أستاذ.. أنا يا أستاذ».. والنتيجةُ: لوحةٌ تشكيليّةٌ تتناسقُ فوقها ألوانٌ معبّرةٌ، وتتقاطعُ داخلها خطوطٌ حادةٌ وواضحةٌ، لا أثرَ عليها لكشطٍ أو مسحٍ أو تردّدٍ.. حتى أصبحتُ لوحاته تُزيّنُ الفصلَ والفصولَ الأخرى في المدرسة، وتحتلُ عدّةً واجهاتٍ في الطرقاتِ، وفي حجرةِ الناظرِ، وفي مُواجهةِ الداخلِ إلى غرفةِ المدرسينِ.



٢٢ - ٣ - ١ - ٢٠٢٢

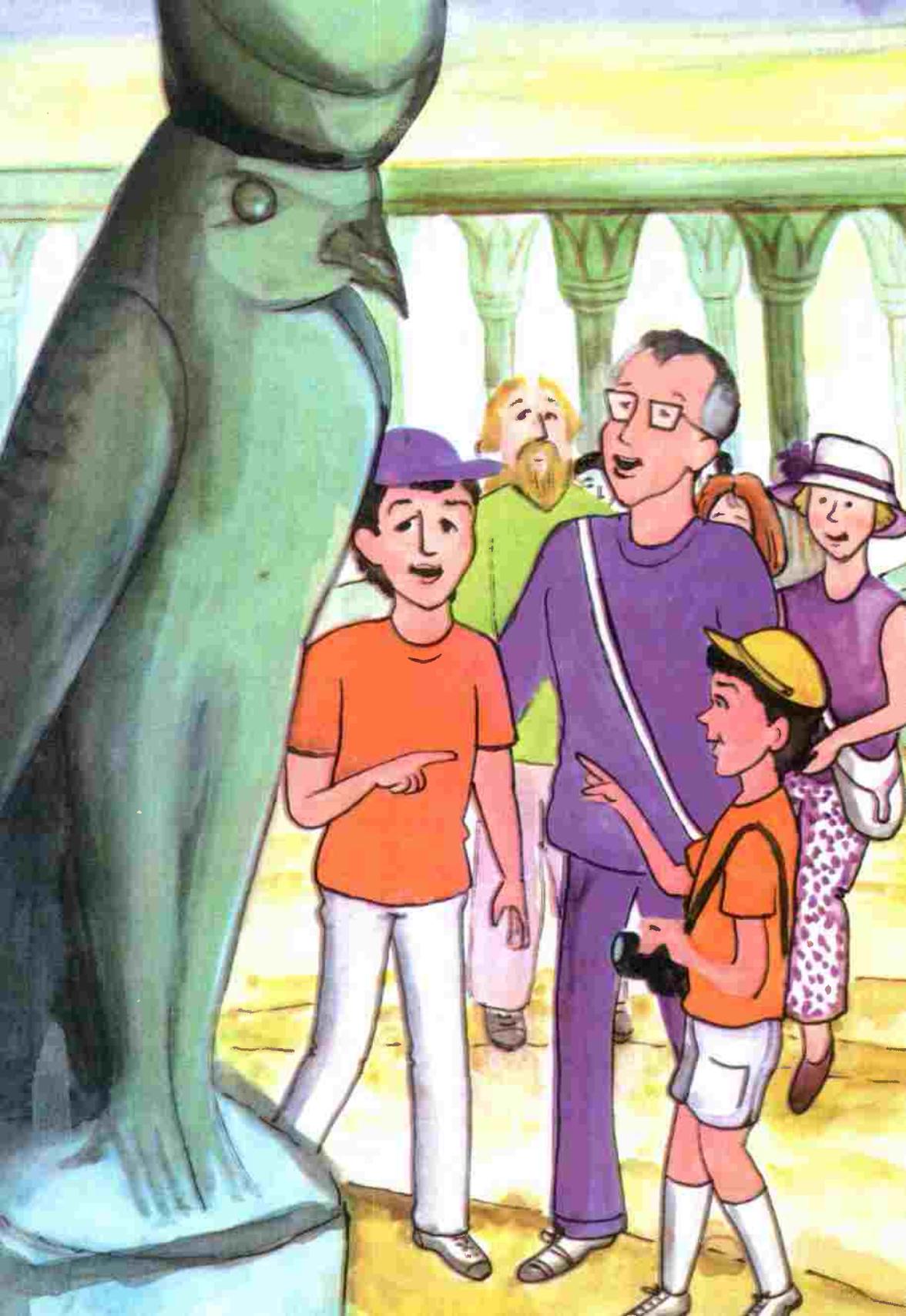
مله
في السويد

مرة؛ في زيارة من الزيارات القليلة التي شرفَ فيها مدرستنا مديرُ الإدارة التعليمية؛ توقَّف المديرُ أمامَ لوحةٍ معلقةٍ على الحائط، وسألَ عن الفنان صاحب هذا الرسمِ المعبرِ، ووسطَ زهوِ حضرةِ الناظرِ؛ وانشغالِ وكيلِ المدرسةِ بإحضارِ مصطفى، ووقوفه ضارباً «تعظيم سلام» لحضرةِ المديرِ؛ وأصلَ المديرِ كلامه - مشيراً إلى اللوحة - شارحاً كيف أن السدَّ العالى أنقذَ بلادنا بالفعل من مجاعةٍ مؤكدةٍ أو فيضاناتٍ مميّنة: وزادتُ ابتسامَةُ المديرِ وإصبعُه يقتربُ من وجهِ عبدِ الناصر - المرسومِ بدقة - بابتسامتهِ الشهيرةِ وشعره الضاربُ بالبياض على جانبيّ الوجهِ المتلاشي فوقِ المياه؛ عبّرَ موجةً كأنها تتهدأى فوقَ موجةٍ أخرى تُطلُّ منها وجوهُ الجماهيرِ التي يُلوّحُ لها الزعيمُ، والتي تُبادلُه التحيةَ بهُتافٍ يخرجُ من الأعماقِ.

ولما تنبّه المديرُ إلى وجودِ مصطفى؛ الذى كان ثابتاً فى وَقْفَتِهِ وَيَدُهُ ما تزالُ مرفوعةً «تعظيم سلام»؛ انحنى الرجلُ وطوّقه بيديه، وطبعَ قُبلةً على جبينه، وأخرجَ - من الجيبِ الداخلى «لجاكته» - جُنيهاً كاملاً قدّمه له وَسَطَ تصفيقِ الحاضرينَ، وقالَ بصوتٍ يملؤه الفخرُ والاعتزازُ:

- هذا الولدُ ينتظرُه مُستقبلٌ كبيرٌ بإذنِ الله.. فى اليومِ التالى للواقعة؛ وبعد أن اصطفَّ التلاميذُ فى طابورِ الصّباحِ وأدّوا تحيةَ العلم، ارتفعَ التصفيقُ تحيةً لمصطفى، وقدّمَ له حضرةُ الناظرِ ساعةً يدٍ قامَ بنفسه بوضْعِها على يده الرفيعة، وقبّلَ جبينه ودعا اللهَ أن يحرسه لوالديه وللوطنِ.

والمفاجأةُ كانتُ بعدَ أسبوعٍ؛ حيثُ وصلتُ المدرسةَ رسالةٌ مُسجلةٌ من المديرية، بها ثلاثُ تذاكِرٍ سفرٍ إلى أسوان (ودعواتُ استضافةٍ فى فندقٍ كبيرٍ) لزيارةِ السدِّ العالى؛ واحدةٌ للفنانِ الصغيرِ مصطفى - هكذا مكتوبٌ عليها - والثانيةُ لوالدِ مصطفى، والتذكرةُ الثالثةُ باسمِ مدرسِ الرسمِ الذى تبنّى موهبةَ مصطفى.



وكانت رحلة جميلة؛ صَحِبَ فيها مدرسُ الرسم - بعد اعتذار الأب - مصطفى وأخاه الأكبر الذي يُشبهه تمام الشَّبه؛ مع فارقِ الطولِ لصالحِ الشقيقِ الأكبر.

من يومها وحِصَّةُ الرسمِ في فصلِ مصطفى لها طَعْمٌ خاص؛ عند مصطفى وعند مدرسِ الرسمِ لكنَّ حِصَّةَ اليوم - على غيرِ العادة - غيرُ الحِصصِ كُلِّها، فلا مصطفى طَرَّقَ بِأصبعِهِ «أنا أنا يا أستاذ» ولا حتى حَرَكَ يَدَهُ لِيُمسِكَ قَلَمًا أو يَنظُرَ إلى لونٍ، مع أن درسَ اليومِ في غايةِ السهولة!!.

وحارتَ نظراتُ الأستاذِ بينَ تلاميذِهِ؛ وأولَّهُمُ مصطفى؛ وبينَ عناصرِ الدرسِ المكتوبةِ على السبورة، وراجعَ الأستاذُ العنصرَ عُنْصُرًا بعد عُنْصُرٍ، لا لَبَسَ فيها ولا غُمُوضَ، بل على العكس: واضحةِ الوضوحِ كُلِّهِ.. ومع ذلكَ بدأ، مرَّةً ثانيةً؛ يُعيدَ شرحَ عناصرِ الدرسِ عُنْصُرًا عُنْصُرًا: فهاهي الشمسُ، تتوسَّطُ السماءَ، والحرُّ اللافحُ يجعلُ العرقَ يسيلُ من الأبدانِ، والماءُ الذي جعلَ اللهُ منه كلَّ شَيْءٍ حَيٍّ، والمراكبُ والسَّمكُ، والشاطيُّ، ورَمَلُ الشاطيِّ، والشماسيُّ الملوَّنةُ المغرُوسَةُ في الرمالِ على الشاطيِّ، و.. وما أجملَها من نزهةٍ على الشاطيِّ..

«صحيح؛ ما أجملَها نزهةً حتى لو كانت نزهةً على الورق!»..

قال مدرسُ الرسمِ ذلكَ بينَهُ وبينَ نفسه وهو واقفٌ أمامَ مصطفى: هذا الولدُ كتلةُ الهدوءِ والحماسِ وشعلةُ النشاطِ والذكاءِ.

لكنَّ مصطفى لم يرفعَ يَدَهُ ويُطَرِّقَ بِأصبعِهِ - كعادَتِهِ - مُنْبَهًا: «أستاذُ أستاذُ أنا يا أستاذُ» ولم يتحركَ القلمُ بينَ أصابعِهِ النحيلَةِ، كأنما غابتَ عَنْهُ الأفكارُ تمامًا، حتى ظَلَّتْ ورقةُ الرسمِ أمامَهُ كما هي بيضاء!!

ويلاحظُ الأستاذُ سُروُدَهُ، وينشغلُ عَلَيْهِ، ويميلُ عَلَيْهِ مستغْرِبًا، مُتَسَائِلًا:

- مصطفى!

وينظرُ مصطفىَ وكأنَّ أثقالَ الدنيا فوقَ رأسِهِ ويُجيبُ مُصطفىَ :

- نعم يا أستاذ.

ويسأله الأستاذُ :

- قرأتَ الدرسَ يا مصطفىَ؟

ويردُّ مصطفىَ :

- قرأته يا أستاذ.

- وفهمته يا مصطفىَ؟

- فهمته يا أستاذ.

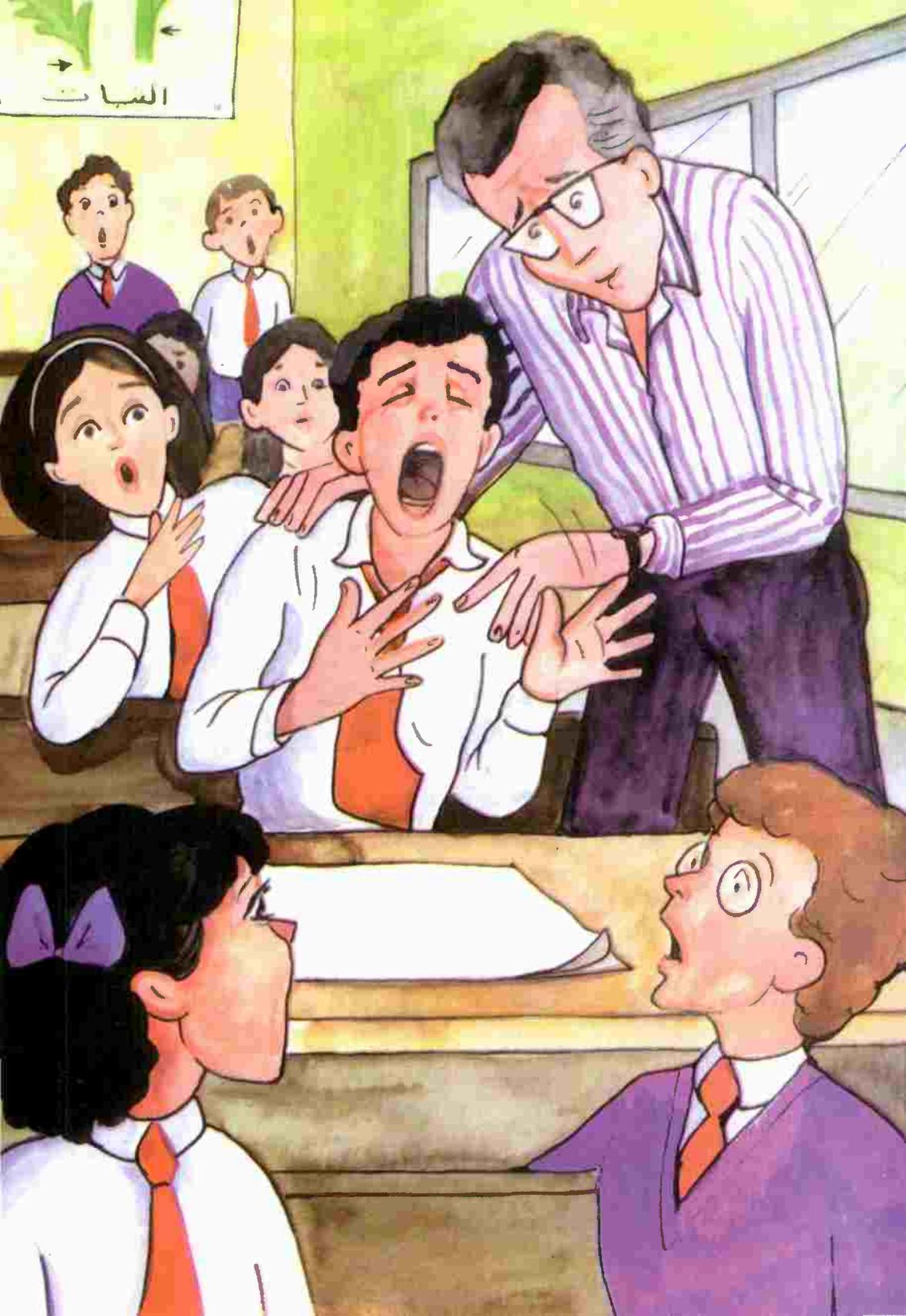
ويحارُّ الأستاذُ، ويكرِّرُ كلامه - مرةً ثالثةً - عن درسِ اليومِ والبحرِ،
ونسيمِ البحرِ، وأمواجِ البحرِ، ..

وفجأةً انتفضَ مصطفىَ كأنَّ الأمواجَ تتقاذفُهُ، وأحسَّ بطعمِ الملحِ يسدُّ طريقَ
الهواءِ إلى رتتيهِ.. وقتها حاولَ جاهدًا أن يأخذَ نفسًا، وصرخَ، وتحشرجتْ
أنفاسُهُ، و «أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ الله».. .. ولم يشعُرْ
بشيءٍ إلا وهو على الشاطيءِ: رأسُهُ إلى أسفلَ وأيديُّ مُتعددةٌ ترفعه من قدميه،
والماءُ يتدفقُ من فمه على رملِ الشاطيءِ..

بعدها ندمَ مصطفىَ على صرختِهِ، الصرخةُ التي أسرعَ على إثرها أخوه إلى
البحرِ لإنقاذه، أنقذه بالفعلِ، وطوى الموجُ الأسودُ الأخ.

ومرةً واحدةً تحركتْ الألوانُ في يدِ مصطفىَ، رسمَ مياهاً سوداءً، ورسمَ
أمواجًا هابجةً، ورسمَ بحرًا أسودَ فاغبرًا فاه وهو يلتهمُ الشقيقَ الأكبرَ.

السبات



تمام يا قندم

هذا الصباح؛ ومثلُ عادته كلَّ صباح؛ ما أن يتنفسَ الصبحُ حتى يفتحَ الولدُ عينيه مبكراً ويرفعَ رأسه ويجلسَ على سريره قبلَ أن يرنَّ جرسُ المنبِّه الموضوع بجوار السريرِ.

ومعَ عادته كلَّ يومٍ في الصحو قبلَ أن يرنَّ المنبِّه، فإنه ينظرُ إليه ويتركه حتى تحينَ الساعةُ التي ضبَّطه عليها تمامُ السادسة فيعلو صوتُ المؤذنِ الصادر من المنبِّه:

اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ

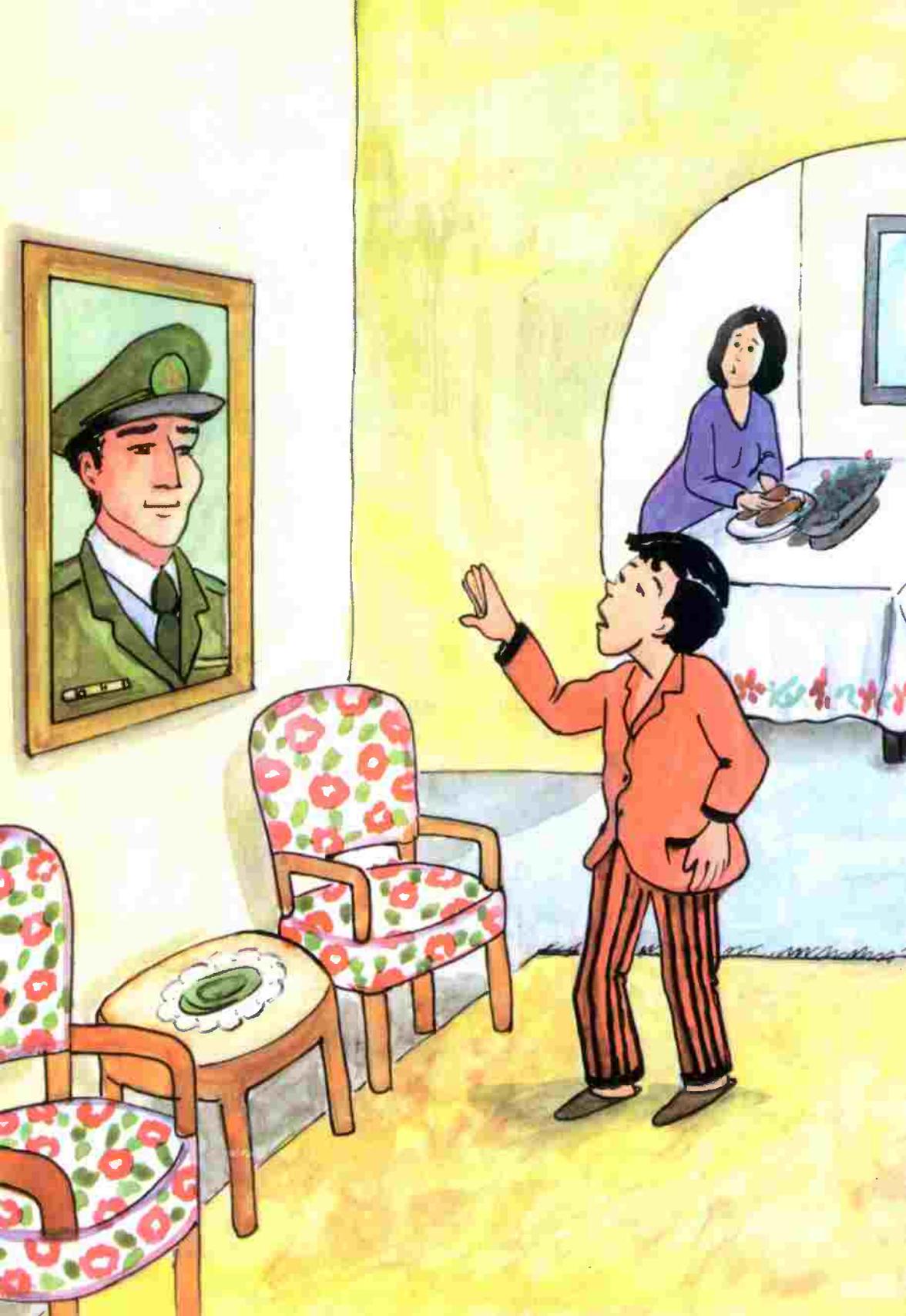
اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ

أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ..

أشهدُ أنَّ محمداً رسولُ اللهِ..

يرددُ الولدُ الأذانَ مع صوتِ المؤذنِ المنسابِ من المنبِّه..

منذُ أيامٍ أعجبه صوتُ المؤذنِ الصادر من أحدِ المنبهاتِ في محلِّ من محلاتِ وسطِ البلدِ فوجئَ بأمه تشتري له واحداً.



ينشرح صدره وهو يسمع الأذان، ويكون - فى التو واللحظة - قد وثب؛ فى خفة ونشاط ملحوظين؛ بقفزة واحدة إلى الأرض، وانتهى من «ترتيب» حُجْرته، ثم وقف باتجاه الصورة المعلقة على الحائط فوق سريره، يشدُّ قامته ويرفعُ يده اليمنى بالتحية وهو يهمسُ فى شموخِ وجسده يرتعشُ كعادته عندما يؤدَّى هذا الواجب:

- صباح الخير يا سيادة العميد أركان حرب إبراهيم الرفاعى..

ينتهى من التحية، ويبدأ برنامجه اليومي: يغتسل، ويتوضأ، ويصلى لله الواحد الأحد.. بعدها يفتح نافذة حجرتة فتدخل الشمس تتنفس كأنها تستأذنه أن ترمى خيوطها الذهبية على جانب من سريره وبطانيته المفروشة عليه، والمرسوم عليها أسدٌ جالسٌ فى استرخاء وسط أعشاب خضراء ويرنو بعين نائمة إلى غزال بعيدٍ شاردٍ.. يبتسم وهو يرى عم صابراً - حارس العمارة - مشمراً أكمامه عن ساعديه ومعلقاً ذيل جلبابه الواسع فى «دكة» سرواله؛ ويحرك بيده خرطوم المياه يمينا ويساراً وهو يرش أشجار الحديقة، فتتمايل الأوراق الخضراء وتنعكس عليها أشعة الشمس الطالعة فتزيدها بهاءً وجمالاً..

اطمأن إلى الورقة التى كتبها بالأمس بعد انتهاء مراجعة دروسه ليلقيها اليوم فى الإذاعة المدرسية، أعجبه فوضعا فى حقيبته المدرسية..

بعدها يتجه إلى حجرة والدته ويدق بابها، يسمع صوتها تناديه من المطبخ، يسرع جهتها محيياً.. لكنها تسبقه كعادتها كل صباح؛ قائلةً وابتسامتها تملأ وجهها:

- صباح الخير يا حضرة العميد أركان حرب رفاعى إبراهيم الرفاعى..

يقترُب منها ويرفعُ يده تلقائياً بالتحية العسكرية وهو يشبُّ على أطراف أصابعه ويمدُّ قامته لأعلى:



- تما الام يا فندم..

وعلى الفور تترك الوالدة ما يشغلها كله، تمسحُ يديها من المياه التي تبللها، وتنحني إليه وتقبُّله فوقَ جبينه، ثم تضمُّه إلى صدرها في حنانٍ زائدٍ..
ويسمعُ صوتها الهامسَ وهي تنظرُ إلى البعيد:

- يا ااه.. يا إبراهيم يا رفاعي..

وقتها يشعرُ بالفخرِ يملأُ جوانبه؛ وأمه تتحدثُ إليه باعتباره كبيراً، أكبرِ من سنِّه، وتذكرُه ليلاً ونهاراً بوالده العميد أركان حرب إبراهيم الرفاعي..

تُناديه باسمه: «يا سيادة العميد أركان حرب» فتضعُ على أكتافه المهامَّ الجسامَ التي يُفكرُ - رغم صغر سنِّه - فيها كثيراً.. ويتجهان معا؛ مثل عاداتهما كل صباح؛ ليقفاً أمام الصورة الكبيرة المعلقة فوق الحائط، والتي تركزُ فوق جانبها الأيمن ميدالياتٍ وأوسمةً ونياشينُ.. ويزيدُ عليها هو كل شهور ميدالياتٍ وشهاداتٍ تقديرٍ متعددةٍ يحصلُ عليها من فريق «الكاراويه» بالنادي، وتعلقها والدته بنفسها بجانب أخواتها.. بعدها يروحان معا - الولدُ ووالدته - إلى «دولاب الذكريات» كما تطلقُ أمه عليه ويقلبان الصورَ، ويكرران - معا - التعليقات التي كرَّراها عشرات المرات:

- صورة التفوق في ضرب النار.

- كأس المركز الأول في الفروسية.

- وصورة..

- وصورة..

ويختتمان تعليقاتهما بلمس «نجمة سيناء» التي استحقها اسمُ الشهيد عميد أركان حرب إبراهيم الرفاعي بعد بلائه بلاءاً حسناً في «الفرقة السادسة مشاة ميكانيكي» وهو يثارُ لرفقاء السلاح الذين دمرتهم طائرات العدو وهم يبنون حوائط الصواريخ على الشطِّ الغربي للقناة..

يتناولُ إفطاره مع والدته، وينظرُ إلى الساعةِ المعلقةِ فوقَ الحائطِ فينهضُ مُعلّقاً شنطةَ كتبه خلفَ ظهره، ثمّ تلوحُ له فكرةٌ مفاجئةٌ: لماذا لا تكونُ كلمةُ الإذاعةِ المدرسيّةِ اليومَ كلمةً مرتجلةً عن حُماةِ الوطنِ، ووجدَ نفسه يكوّرُ بينَ يديه الكلمةَ التي بدّلَ جُهدًا كبيرًا في كتابتها بالأمس قُرابةَ الساعتَيْنِ.. فسيرتجلُ هذا الصباحَ كلمةَ الإذاعةِ المدرسيّةِ، وعن الموضوعِ نفسه..

ومع صوتِ نغيرِ سيارةِ المدرسةِ؛ كان يخطو وأثقالاً وفي ذهنه عشراتِ الكلماتِ المرتجلةِ عن والده العميدِ أركانِ حربِ إبراهيم الرفاعي وزملائه حماةِ الوطنِ ومقتطفاتٍ كاملةٍ من الروايةِ التي كتبها الغيطانيُّ عن والده؛ وفازَ بها بجائزةِ الدولةِ؛ ويكادُ يحفظُها عن ظهرِ قلبٍ.



رقم الإيداع	٢٠٠٥/٢٠١٨٠
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-6842-9

٧/٢٠٠٥/٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع. ٠)